

الإعجاب بالشجاعة والسخاء وقتل الأعداء وخوض المعارك ، وأشاد بأن أميره صنعه ذا غنى وجعله ذا ثراء بعد أن كان يغوص في العدم والفقر يستجدي الأكف ويستندى النفوس . وكذلك كان العباسيون من الشعراء يطلبون العطفية صراحة ويسألون الهدية إلخافاً ، ويقفون من الأغنياء موقف الصاغر المستنجد ، فامتألت كتب الأدب ودواوينه بهذا اللون من المديح ، واحتاج الكتاب والمؤلفون إلى أن يخلصوا فصولاً من كتبهم بالهدية والعطاء ، فألف الخالديان كتاباً « في التحف والهدايا » جمعاً فيه ما قال الشعراء وهم يطلبون الهدية ، وما قالوه وهم يشكزون للمهدى ، وذلك ثقيل على نفوسنا في العصر الحاضر ، وقد أصبح للعز والكرامة عند الكاتب الحر معنى بعيد عما كان في نفوس كثير من هؤلاء الشعراء المدّاحين . فالسائل في عرفنا يشبه المستعطي ؛ يطلب بمدح ، ويشكر عنا العطفية بمدح ، حتى كان في الشعر شبيه بالأوراق التي تقدم اليوم في طلب الحاج واستنجاز العطفية وبيان فقر الحال ؛ ولن نضرب لذلك كثيراً من الأمثال وإنما نورد صورة واحدة منها لشاعر عباسي :

فأبو العتاهية يهدى إلى الفضل بن الربيع نعلا ، ويتمنى معها بشعر يرسا
إليه أن يشرك خدّه بالنعل :

نَعْلٌ بَعَثْتُ بِهَا لِتَلْبَسَهَا تَمَثُّي بِهَا قَدَمٌ إِلَى الْمَجْدِ
لو كان يَصْلِحُ أَنْ أَشْرَكَهَا خَدِّي جَعَلْتُ شَرَاكَهَا خَدِّي!

وما نرى كثيراً من الناس يقبلون بأن ينسب إليهم هذا الشعر إلا إذا كاذ في المتصوفة حين يتوجهون إلى الله أو إلى رسوله ، فعند ذلك تتصاغر النفس وتتضائل ، ولها أن تقف من الخالق ضارعة ذليلاً ، ولكنها لن تقف من الوزر أو الأمير الموقف نفسه ، فذلك ما يأباه عزيز أو كريم .

وظل الشعراء يبالغون في ذلك حتى قال أبو نواس في « الخصيب » :